تلك سبأ (*)

للأستاذ محمد عبد الله العمودي

هناك نحو الشرق من سنماء عاصمة اليمن ، على بعد خمسة أيام فوق متون المطايا ؛ تمتد منطقة واسعة الأطراف ، مترامية الأكناف ، عامرة بأسرار تاريخ ، وغيرة بخبيئة ماض بعيد ، يجد فيها عالم الآثار مادة خصبة ومجالاً واسعاً فسيحاً لاختباراته وأبحاثه

في تلك البقعة الساحرة المسحورة التي فاضت عليها أنفاس الرياح الغرائب فطمرت معالمها ، وأخفت ماشخص منها ، ونسجت عليها أثواباً رقيقة شفافة من الطمى الأملس ، تلبد في ذمة التاريخ وتحت أنقاض العصور خرائب سبأ ، مدينة الملكة العظيمة بلقيس عروسة سليمان ابن داود ...

هذه بقاع منسية في جزء مهم من بلاد العرب ، لعبت أدواراً خطيرة في مجال التاريخ القديم ؛ تدل الآثار الضئيلة التي قذفتها هذه الأراضي الضنينة التي جاءت من قبيل الصدف بأن ما تحويه في أحشائها يفوق الوصف ، ويثير التاريخ !

ومعلوماتنا عن هذه البلاد السبئية ضئيلة ؛ فبالرغم من كثرة الرواد الذين اجتاحوا هذه البلاد فإن خطراتهم بين خرائبها كانت سريعة خاطفة ، فلم يعرف عنها إلا أشياء مقتضبة مشوهة لا تقوم على إسناد علمي يركن إليه الباحث ، وتطمئن له نفس المنقب ؛ وهذا عائد إلى طبيعة الأرض وجفوة سكانها وقساوتهم ضد الأجنبي ... وما عرفنا أحداً تغلغل في صميم هذه البقاع سوى ثلاثة من الأوربيين أتاحت لهم الظروف الوصول إلى قلب مدينة سبأ فجمعوا كتابات كثيرة جداً منقوشة على الصخر الأصم!

هؤلاء الأشخاص هم أرنود Arnaud (١٨٤٣) وهاليفي Halevy (١٨٦٠) ثم غلازر Glaser (١٨٨٨) . وبعد هؤلاء الباحثين لم يتقدم أحد من الأوربيين مطلقاً . فبقيت أرض سبأ إلى هذه الساعة محتفظة بأسرارها الرهيبة الهائلة ...

هناك في الناحية الغربية من مدينة بلقيس ؛ بنى السبئيون في أحد الأودية العظيمة سداً عظيماً ، متين البنيان ، وطيد الأركان ، مشمخر الأنف ، تتجمع فيه أمواه السيول المنحدرة من أعالي الجبال فتسقي الأرض ، وتحيي الضرع ؛ حتى غدت هذه البلاد مثلاً سائراً في خصوبة الأرض ؛ وكرم التربة !

أما أبرز المظاهر الاقتصادية التي كان يتداولها سكان هذه البلاد مع الأمم التي تناوحهم فهي تلك الأعواد العطرية الفواحة ، والنباتات الكريمة التي تتفوغ بها أوديتها العميقة وشعابها المشجرة المعطرة

وبناؤهم في غاية الفخامة والجلال ؛ قصور شاهقة ، وبناء محكم ، وحيطان وسقف مموهة بالأحجار الكريمة ، مرصعة بالعاج ؛ وآنيتهم من الذهب والفضة الخالصين !...

ولكن السبئيين كانوا يعبدون الشمس[1] والقمر والوعل[2] والعجل[3] ؛ ولهم معابد فخمة واسعة منتشرة في كل الأنحاء ؛ ثم لما بطروا بأنعم الله عاقبهم الله بانهيار السد ، فغشى المدينة من الماء الجارف ما غشيها فجعل عاليها سافلها ، وأهلك سكانها وأباد ضرعها وزرعها فكانت مثلاً

ويعدُّ انهيار السد حدثاً عظيماً في تاريخ الشعب العربي ؛ ذكره (القرآن الكريم) في جملة ما ذكر من القصص ؛ ومع كل هذه الحقائق التاريخية الثابتة أصلاً فإنها لم تؤثر في تفكير المهراقة ؛ ليعلموا : أن لو كان أمر من أمور الرجال يقوم بامرأة لقام بهذه السيدة الحصيفة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والصلاح ما لم يؤته رجال كثيرون . وبقيت حرب الجمل منارا في تاريخ المسلمين كلما نزغ بهم من الشيطان نزغ فهموا أن يخرجوا بالمرأة عما خلق لها وخلقت له ، قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة في أول تاريخنا فما بنا من حاجة إلى أن نهرق في سبيلها دماء جديدة ؛ وسن لنا مع هذا يمثل السيدة عائشة

(دمشق) محمد الأزفغالي

(*) فصل من كتاب « أسرار حياة بلاد العرب السعيدة » الذي كتبنا عنه في عددي ٣٠٩ ، ٣١١ من الرسالة وقد لخصنا هذا الفصل بتصرف .

(١) في القرآن حكاية عن لسان الهدهد « اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله الخ »

(٢) هذا الحيوان لا شك أن له أثراً عظيما في تاريخ تلك البلاد فقد جاء رسمه في بعض النقوش ؛ وصوره لا تزال محفورة في جبال حضرموت الصخرية اليوم . ويوجد بكثرة في جبال حضرموت وهو قنيص الحضارمة الوحيد !

(٣) ويجب أن نشير هنا إلى أن العجل « أبيس » معبود المصريين القدامى قد ورد ذكره في أحد النقوش الحميرية التي نشرها الأستاذ مرغليوث الانجليزي « العرب »

اليمنيين وتغير مجرى اعتقادهم فى أن يعيدوا إلى الوجود وإلى ضوء الشمس آثار ذلك الماضى اللماع المجسم فى خرائب هذه المدينة ذات الجلال والإبداع ، ولم يفكروا مطلقاً فى استنطاق هذه الألواح السخرية المنقوش عليها حرف « المسند » ليعرفوا حقيقة الماضى البعيد

أما علماء الآثار الذين مكنتهم الظروف فاخترقوا هذه الآفاق واستهدفوا لضروب من المتاعب والأخطار ، فما استطاعوا أن يقدموا لنا عن هذه البلاد إلا معلومات ضئيلة لا تشفى غلة الباحث الصادى

نعم ، إن إدوار غلازر نجح فى مهمته ، وتنكر فى شخصية مسلم واستطاع إبان وجوده بصنعاء أن يتفق مع أحد أشراف مأرب ليكون له قائداً ودليلاً إلى حيث السد

فمن صنعاء أخذ الاثنان طريقهما فى واد عميق يقع بين ذُرى بلاد نِهْم وخولان[1] ؛ ثم انحدرا إلى وادى شبوان فأخذا طريقهما إلى خرائب السد ومن هنا تابعا سيرهما فى ثلاث ساعات إلى مركز الحضارة السبئية : مدينة بلقيس !

وترامت أخبارهما بين القبائل المتعصبة المتحمسة فعقدوا العزم على ذبحه وذبح دليله . ولكن غلازر درى بحقيقة الأمر فاحتاط لنفسه كثيراً فكان يقوم ليلاً ويختفى نهاراً ... ولما انتهى من أبحاثه وهم بالرجوع هاجمته جماعة من البدو المسلحين ولكنه نجا بأعجوبة !

وبالرغم من هذه المتاعب الكثيرة التى صادفت هذا المغامر ، وبالرغم من افتقاره للآلات العلمية المتممة لأبحاثه فقد نجح هذا العالم الأستَرْيِى[2] فى طرق اختباراته فجمع ما يناهز ٨٥٠ نقشاً حِمْيرياً وبان لعلماء الآثار أن هذه المنطقة ، من أرض سبأ ، غنية بآثارها عميقة فى أسرارها !

أما الإمام يحيى فقد توعد بالعقاب الصارم كل من تحدثه نفسه بهذه الحفريات للأجانب ؛ كما أنه أقفل أبواب سبأ فى وجوههم ولكن أحد[3] دؤلاء المجازفين حاول الوصول إلى مأرب من حضرموت فاكتشف أمره وقبض عليه، ودفع إلى ما وراء الحدود!

ودفعت المغامرة غيره فى وقت قريب ، فوصل هذه الأرجاء فعثر على شظايا أثرية، وتماثيل عجيبة لدى جماعات من البدو فابتاعها منهم وشحن منها صناديق ...

وكل من لاقيته فى هذه البلاد وسألته عن أسباب هذه المتاعب الجسيمة التى يلاقيها الرحالة فى أرض سبأ راح يشرح لى أسباباً كثيرة ، وأموراً غريبة !

(ش ١) رأس آدمى من البرنز

أخبرنى أحد العلماء قال : « هناك فى أرض سبأ تعيش قبائل مخيفة من البدو لا يعلمون عن العالم شيئاً ، بل يجهلون كل الجهل من حولهم ؛ يعبدون الله ولكن على صورة تخالف ما عندنا ، ويأكلون اللحم النيء ؛ وفى قبائلهم تعيش جماعات من النبلاء والأشراف يستبدُّون بالضعيف ، ويسخرونه فى حرث الأرض ، والدفاع عن الحوزة ؛ لهذا ترى من الحكمة ، وسداد الرأى ، أن الإمام مصيب فى منعه الأجانب من دخول هذه الأقاليم الرهيبة التى لا تعرف من سلطة الإمام إلا القليل ... »

وتشرفت بالمثول بين يدى الإمام ، وبما أنه معروف عن جلالته الطبع السمح . والخلق اللين ؛ فقد بادهته بهذا السؤال :

---

(١) من قبائل اليمن

(٢) نسبة إلى أوستريا فى قلب أوربا

(٣) هو السائح الجرمنى هانس فون هلفرتس وقد أصدر مؤلفين عن حضرموت باللغة الألمانية

— هل يأذن لى صاحب الجلالة فى زيارة بلاد سبأ ؟

ولشد ما كانت دهشتى عظيمة عند ما رأيت ابن حميد الدين يستوى فى جلسته ثم يصيح بى قائلاً :

— سبأ ؟ أرى أن مشاهدتك واستكشافك هنا خير وأولى ! أمكث فى صنعاء إلى ما تشاء! وإذا لم يعجبك هذا فدونك ما حوالينا من القرى الجميلة ، والأودية النضرة ، فانهب من الجمال ما شئت وما لا تظريك من محاسن الطبيعة اليمنية !

— ولكن يا مولاى ، أريد سبأ ، فهل تتركنى أذهب إليها ؟

— لا ! إن سبأ بعيدة المنال ، صعبة الوصول ، فأنا لم أرها منذ سنين ، وزيادة على ذلك فما هناك طريق واضح ؛ فهل من المعقول أن أتركك تذهب حيث لا طريق معبد ؟ أنا أريد أن أراها ولكن لا سبيل إلى الوصول إليها... هناك حتى يومنا هذا لا يزال جزء عظيم من بقايا السد قائماً فى شكل يثير الإعجاب ! تصور جيداً أنه شيد كله من الصخر الأصم ؛ وهذه الصخور تتألف من ثلاثة ألوان : خضراء وحمراء وشهلاء ... وعلى مقربة من السد تقوم نقرة عظيمة حفرت جداول توزع منها المياه إلى الحقول والبساتين التى جمع منها السبئيون كل غنائم وجاههم !

— والمدينة يا مولاى ؟

— حطمها السدّ وغمرتها المياه من كل جانب فغمرتها رواسب كثيرة شفافة ، وما زالت أطرافها شاخصة فى عظمة واستكبار ... فهناك على مساحة عظيمة تطفو على وجه الأرض أعمدة وأحجار ؛ وأجل هذه الآثار شخوصاً « عرش بلقيس » ذلك المعبد العظيم الذى شيده سليمان لملكة سبأ ... واليوم عزمت على تعبيد الطريق من صنعاء إلى مأرب فتخترقها السيارات بسهولة!

* * *

إن الآثار المدهشة التى تكشفت عنها بلاد العرب الجنوبية تراها اليوم موزعة بين متاحف أوربا ؛ وليس لها أثر كبير فى بلاد اليمن اللهم إلا أشياء ضئيلة فى متحف صنعاء مجموعة فى نظام يستدر الشفقة ، ويبعث الحسرة !

فى متحف ترمى Terme بروما يمكنك أن تتمتع بمشاهدة آثار سبأ وحمير وسائر ممالك اليمن القديمة ...

فهناك نقوش كثيرة وقطع من الفن الهندسى الرائع ، وتماثيل ضخمة منحوتة من الصخر جمعها الدكتور أنسالدى[1] أثناء رحلته إلى بلاد اليمن أخيراً واستطاع أن يأخذها إلى إيطاليا بموافقة الإمام !

أما المتحف الذى أنشأه الإمام يحيى فى العاصمة اليمنية فهو عبارة عن (غرفة !) من قصر خصّص لنزول البعثات الأجنبية تتكدّس فى هذه الغرفة آثار اليمن القديمة !

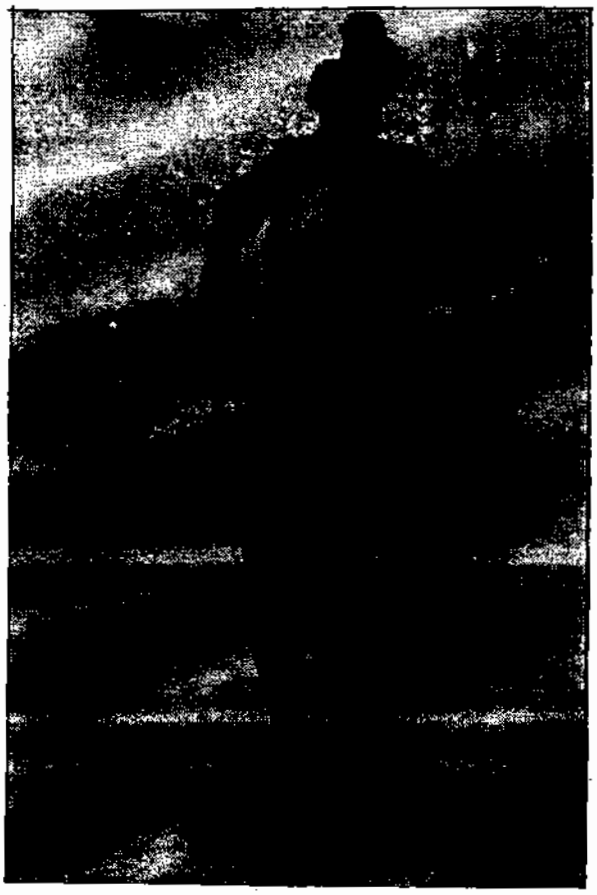

(ش ٢) تمثال يطل عارى الجسم

ولما كانت هذه الغرفة محرومة من المساند والمناضد فقد طرحت أرضاً هذه النقوش والقطع الأثرية ؛ وبعضها مرصوص على جوانب الجدران ؛ والجزء الأعظم من الآثار الصغيرة محشوّ فى أجواف صناديق القَمْط ...

(١) هو الدكتور فيصر أنسالدى ساح فى اليمن قبل السنيور آبونى وله كتاب (اليمن : فى الخرافة والتاريخ) باللغة الايطالية . وقد أخذنا منه الصورتين المنشورتين فى هذا العدد .

والزائر الذى يأتى لمشاهدة هذه الآثار لا يسمح له بدخول هذه الغرفة بل يقوم الحارس بعرض بضاعته من الداخل فيطرحها على أرض الشباك بحيث يتمكن الزائر من المشاهدة واللاحظة وهو فى الخارج ؛ وفى أغلب الأحيان تَفْلُت من يدى الحارس بعض التماثيل فتهوى إلى الأرض محطّمة ؛ وفى جلافة وعدم مبالاة ، يركلها برجليه إلى إحدى الزوايا !

إن الله وحده الذى يعرف كم تحوى هذه البقاع اليمنية من الآثار والتماثيل ذات الجلال والسموّ . وما ذلك الفن السامى الذى ازدهر فى هذه الربوع المتمثل فى هذه الخرائب الأبدية وفى هذه التماثيل العديدة للنساء والرجال المفرغة فى المرمر الحرّ والرخام المجزع ، إلا صورة حية ناطقة لذلك الفن الرفيع العريق فى هذه البلاد منذ أقدم العصور! يدلنا على هذا كله وجود تمثالين فى متحف صنعاء بلغا حد الاتقان والإبداع .

أولهما (ش ١) يمثل رأساً[1] من البرنز لشاب أو شابة من أبناء تلك البلاد على وضع فنى جميل يشبه إلى حد ما أحسن التماثيل الإغريقية القديمة ، وقد وجد فى غيمان[1]

والثانى (ش ٢) تمثال عظيم مصوغ من البرنز وجد فى خرائب النخلة[2] الحمراء يمثل بطلاً عارياً منسجم الأعضاء جليل الصورة . ومما يدعو للأسف أن العمال الأغرار أثناء الحفر تناولوه بالتهشيم فذهب شىء كثير من روعته ، ولكن الآن لحسن الحظ أعيدت صورته الأولى ، وأجبرت كسراته ووصلت حواشيه ، واستقام على قدميه بقوة أسلاك معدنية

والحق أن مثل هذه الآثار كثيرة الوجود تحت الأنقاض وفى بطن الأرض ولكنها تتطلب مجهوداً عظيماً يكلف كثيراً فى بلد يقوم على هذا الوضع من الحياة والعزلة

(القاهرة) محمد عبد الله العمودى

(١) هذا التمثال موجود اليوم بمتحف لندن ، أهداه الامام لملك الانجليز بمناسبة تتويجه

(١) مدينة أثرية على بعد خمس ساعات إلى الجنوب الشرقى من صنعاء

(٢) بلدة تقع على مقربة من غيمان

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم إليكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة فى أثمانهـــــا ...

رائعة فى ألوانهـــــا ...

فبادروا باخـــذ طلباتكم